وتستمر الحياة

كثيرا ما نظن أننا تخلصنا من آلامنا وأحزاننا وأننا أصبحنا أكثر قوة، نتناسى الماضي فلا نلتفت له ثم يغلفه الزمان بخيوط حريريه ويدفن في أرض الذكريات بركن سحيق من العقل ... ثم يأتي حدث ما فتطفو على السطح بكل ما فيها من ألم وتنهش في القلب بأنياب من حديد وفى بعض الأحيان تنزف مره أخرى وبغزارة أكثر ....

سأعرفكم بنفسي ..فانا شابه في العقد الخامس ... نعم اليوم وقد تعديت الخمسين من عمرى ولكنى ما زلت أحتفظ بالكثير من حيويتي ولكن من سخرية القدر أن بعض صديقاتي يخبرنني أنى لو كنت مع زوجي لكان الحال غير الحال لكنت أصبحت أكثر إرهاقا وتقدما في السن ... ابتسم بيني وبين نفسى .. سواء كانوا على صواب أو خطأ فكل له نصيبه وقدرة المرسوم لا يستطيع أن يحيد عنه ...

وقررت اليوم أن اخرج لبعض الوقت فقد كنت أشعر بالخمول والكسل، وقفت أمام منزلي في أحد أيام شهر يناير وقد كان المطر رذاذا خفيفا ، وآشعة الشمس تحاول اختراق السحاب المتكاثف ليحجب الدفء، أتأمل روعة السماء المحملة بالسحب البيضاء كالثلج ، لذلك قررت الذهاب إلى المكتبة سيرا على الأقدام فقد تذكرت أيام الصبا واللهو تحت المطر في بلدنا الصغير في الريف..

وصلت إلى المكتبة وقد راح المطر يتسارع كأنه خيط متصل ما بين الأرض والسماء فلم اهتم فقد استمتعت كثيرا بتلك النزهة ، وكانت قاعة المكتبة العامة مقفرة والحضور قليل ، فاخترت الجلوس بجانب شابة وحيدة ، وطلبت من أمينة المكتبة كتابا من كتب التاريخ كنت قد بدأته منذ فتره ورحت أحتسى كوبا من القهوة سريعة التحضير كنت قد أحضرتها معي وعزمت على جارتي بعضاً منها فاعتذرت بأدب وعادت مره أخرى لكتابها ولاحظت أنها لم تقلب الصفحة ، ودموعها تتساقط بلا توقف وقد بللت صفحاته، وحاولت تجاذب أطراف الحديث معها ولكنها تجاهلتني،

فتحت حقيبتي وأخرجت منديلا ووضعته على الكتاب، لم أتكلم معها وخطرت في بالى فكره فأخرجت قالب من

الشيكولاتة ووضعته أمامها أيضا ، ولم يسعها إلا أن تنظر إلى فأخبرتها أنه يرفع معنويات النساء ويحسن مزاجهن فابتسمت وشكرتني بأدب ... وبعد قليل أغلقت الكتب بقوة ووضعت رأسها عليها في إنهاك ..

واستمريت في القراءة حتى وجدتها تلتفت لي وتبتسم شاكره على المنديل والشكولاتة ونهضت في تكاسل وتردد ..

واستعدت للخروج .. شعرت أنها تبحث عن منفذ للحديث ولكنها تستحي ..

وعرضت عليها أن أسير معها بعض الوقت فلم ترد ولكنها أشارت بالموافقة وخرجنا...

- ما رأيك أن نحتسى فنجانا من القهوة في المقهى بجانب المكتبة ووافقت وأحسست بأنها تشعر بالوحدة وحالة من الضياع ... وبلا مقدمات نظرت لي وقالت لا بد أن الفضول يأكلك يصارعك لتعرفي ما بي؟ ... نظرت إليها ولم أجب...

قالت: أولا سأعرفك على نفسي أنا شمس ...

قلت: مرحبا شمس أنا عائشة

قالت: في بعض الأحيان، نحتاج لمن نتكلم معه قد لا نتقابل مره أخرى أو ننسى حتى لقاءنا هذا، ولكنى سأخبرك بقصتي علها تخفف ما بي من ألم وما يعتمل في داخلي من حزن ... اليوم عيد ميلادي الخامس والعشرين ... وكما ترين أن الله قد وهبني مسحة من الجمال، ولكن بعد وفاة أبي وكنت في الثامنة عشر من عمري صمم أخوتي على زواجي وتزوجت، لم أكن أعرف عنه إلا أنه ابن صديق أخي الكبير وكذلك مديره في الشركة التي يعمل فيها...

وكان زواج سريعا، تم في ستة أشهر ولم أعرفه إلا بعد الزواج، وكان رجلا رائع المنظر ، زرى المخبر ، سريع الغضب ، يضرب بلا تفكير، ثم يعتذر ... مر عام ولم يحدث حمل وذهبت إلى الطبيب ، والحمد لله ، ولحكمه من الله اكتشفنا إنني لا استطيع الإنجاب، وما كنت أتخيل أنه بهذا السوء ... أرسلت إلى بيت أمي كطرد ليس له قيمه وأرسل خلفي ورقتي وأشيائي، أتعرفين، لم احزن ولو للحظه ، ربما لو أنجبت لعشت مع هذا الرجل طوال حياتي اتلظى بناره ... وما أبشعها من حياة، وتوفت أمي بعد عام من طلاقي وعشت في منزل الأسرة ... إلا أن اخي الكبير أيضا وذات يوم أحضر لي عريسا عنده 45 سنه وله أبناء ويريد

تزويجي مرة أخرى وحين رفضت اعتبرني متمردة وحرض باقي أخوتي على مقاطعتي حتى ارضخ له ، ولكنى ما رضخت ، ويكفيني زيجة فاشلة واحدة ... ابتسمت لها ... وطلبت فنجانا آخرا من القهوة ، وقلت لها: لا تحزني ، فألحياه فيها الكثير والكثير، واعلمي أنه لا يوجد في هذه الحياة سعادة مطلقة ، أو حزن مطلق ، ولكنها أشياء تتداخل ، وتتقارب ، وتختلف من شخص لآخر، كل حسب ظروفه ...واستطردت ...

- لو تعرفي ، قصتي هي الأغرب ، فأنت قصة تتكرر كثيراً إسمعيني بهدوء ، ولا تتعجلي الحكاية ... فها أنا الآن أعيش وحيدة أيضا ولكن في يوم ما كنت زوجة لرجل رائع بكل المقاييس ، طيب القلب ، كريم حنون ، فيه من الصفات التي تحلم بها كل فتاة ...

وكنا نعيش في منزل واسع بمنطقة راقية بمنتهى الصدق كنت زوجة سعيدة .. ولكن لنتفق أن دوام الحال محال ، كان لي خمس أخوات أخريات وقد قرر الأهل أن يزوجوا أختي الصغرى لأخ زوجي وقد كان على عكس زوجي ... كان عبوسا لا يحب الهزل ، وقد تقرر ان يسكن الزوجان معنا في نفس المنزل، لأننا كنا نعيش بالقاهرة

وعمله وعمل أختي سيكون بالقاهرة ... إذن لا داعى لشراء بيتا آخرا، فهو منزل كبير وحوله حديقة جميلة ... كانت تلك رغبة الآهل وتم الزواج ...

ومنذ اليوم الأول لم يكن هناك وفاق بين أختي وزوجها فقد كانا كثيري الخلاف، لم أكن أفهم الأسباب فكليهما عابس طوال الوقت ... وقد تفاقم الخلاف بينهما وأصبح كل منهما ينام بحجرة منفصلة ... وحاولنا أنا وزوجي إصلاح ذات البين ولكن لم نفلح ... وكانت أختي تعمل في نفس المنطقة التي يعمل بها زوجي فكان يأخذها بسيارته صباحا ويعودا معا في المساء ... وبعد مضى ثلاث سنوات إنتهى الأمر بين أختي وزوجها بالطلاق، وكان لابد لها من البقاء بالمدينة حتى تعيد ترتيب أمورها وأن يتم نقلها بعد ستة أشهر، وكان طليقها وهو أخ زوجي يعيش معنا في نفس المنزل في الدور العلوى لذلك لم تستطع البقاء معنا ، لذا عاشت مع أخت لي تبعد عنا حتى لا يراها طليقها أو يحدث بينهما أي احتكاك ... مع الوقت لاحظت نظرات زوجي الغريبة لي ولأخيه ويتساءل متى عاد ؟! ولماذا عاد مبكرا ؟! والعديد من الأسئلة الغريبة ..

وأصبح لا يتحدث كثيرا ، ولا يضحك كعادته ، ولم يعد يهتم أن نخرج كل جمعه كما كانت عادته منذ تزوجنا، وأصبح يخرج بمفرده ، ويعود مكتئبا ، حتى عاد يوما وكان أخوه مريضا وكنت أعطيه العلاج فنظر لي وطلب منى أن ألحق به وانفجر بلا سبب وطلب منى أن ابتعد عنه وخبرني أنه يعلم ما بيننا وأني السبب في طلاق أختي ، ولم يخطر ببالي أن لأختي يدا في هذا التغير،

واصبحت علاقتنا فاترة ... والأسوأ أنه أصبح ينام وحيدا ولم يمر إلا بضع أشهر وأصبحت مطلقة ، والطامة الكبرى أنه تزوج أختي ...

لك أن تتخيلي وقع هذا الخبر على وكذلك على أخيه وأصبحت بينهم اتهامات متبادلة وفجوة لا يمكن ردمها ... فكل فرد منا يظن أن الآخر السبب في دمار البيت ..

وعشت في تلك الحقبة حالة من الضياع ,, وعدت إلى البلدة وكانت عودتي غلطة.. فقد أصبحت مضغة في أفواه أهل البلدة، حتى أمي لم ترحمني، اتهمتني أنا وأختي أننا جلبنا لها العار ... بعد أن كنت مجنى علي أصبحت متهمة ولا أعرف تهمتي، ولم أعرف أي ذنب جنيته حتى أعامل

بتلك الطريقة ؟! وعاد اخ طليقي للبلدة وشاهد حالتي وما أمر به فقرر أن يعوض على ، كتب بإسمى نصف البيت كتعويض لي وأجبر أخاه أن يتنازل لي عن النصف الآخر (بصفته مؤخر صداق بدل من المال) وعرض علي أن نتزوج ولكنى رفضت ، لم أستطع أن أواجه نظرات الشفقة في عيون من حولي، وفى بعض الأحيان نظرات اتهام صارخ ...

أقسم أنى لم أعرف ما ذنبي في كل هذا، وصممت على العيش في القاهرة برغم اعتراض من حولي ولكنه اعتراض مقنع فقط خوفا من التقاليد البالية ، وقد مر على تلك الاحداث عشرون عام وها أنا ذا أعيش في القاهرة في نفس البيت ...

لم اتزوج ... دخلي الأساسي من قطعة أرض في بلدنا بالإضافة إلى بعض الاعمال اليدوية التي اقوم بها ... أما عن أختي فقد انفصلت عن زوجي الراحل وبعد بضع سنوات تزوجت وانجبت ثلاثة أبناء ... ولم نتحدث من يومها ، فهناك جراح لا تندمل وتترك ندبات دائمة في النفس...

- ما اقسى حكايتك كيف استطعت ان تتعايشى مع كل تلك المرارة والأحداث؟

ألم تحاول أختك التواصل معك؟

- لا شمس ... لم تحاول طوال السنوات الماضية أن تسأل عنى أو تبرر أفعالها ...

- أسمع الأغرب ، لقد طلب منى طليقي أن يعود لي مرة أخرى ولا أعرف كيف واتته الشجاعة لمثل هذا الطلب... وحاول أن يجد مبررا لأفعاله ..وراح يقص على أكاذيبها و السموم التي راحت تبخها بأذنه ، ولكن هيهات فمن المحال ان ننسى جرح جاء من الأقرب والأحب إلى القلب..

ونظرت لها وسألتها: ما رأيك ؟

- والله يا عائشة إن قصتك غريبه بالفعل ...

ابتسمت لها بهدوء قائلة: يا عزيزتي، أنت لك بيتا وعملا ومازلت في عز الشباب ولك شخصية قوية فإياك أن تسمحي لأحد أن يجبرك على شيء أبدا ...

ابتسمت شمس ابتسامة مشرقة تختلف كثيرا عن تلك العيون الغائمة التي التقيتها بها في الصباح ، وقالت: إن لقائنا هذا قد خفف عنى كثيرا، أعطاني القوة لأدافع عن حقي في الحياة ، أما عن الرثاء على الذات فقد تخلصت منه وسأواجه الواقع بلا خوف .... واتفقنا على لقاء آخر ... وتبادلنا أرقام التليفونات، وتركتها ورحت أسير بروية وقد أشرقت الشمس من جديد واختفت كل الغيوم وراحت السحب ترسم أجمل المناظر هناك على امتداد البصر ... وأحسست بدفء من الحياة يجتاح قلبي ..

فللحياة وجوه مختلفة كل حسب وجهة نظره ...